

اللغة الشعرية للنضالات العربية

د. عبد القادر عيساوي

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة جيلالي ليابس-سيدي بلعباس

سنتناول في هذا المقال المراد باللغة النضالية، والمقصود بالمقاومة ومسيرتها، كما نعرض على النهضة الأدبية، ونبين قضايا الشعر، ثم نورد بعض شعراء الثورة وطائفة من أشعارهم في هذا الصدد، وذلك على المستوى العربي بوجه أعم والمستوى الجزائري بوجه أخص.

المراد باللغة النضالية:

يُقصد بـ "اللغة الشعرية للنضالات العربية"، موضوع مقالنا هذا، اللغة التي فيها حث على النضال والمقاومة والثورة والجهاد والدفاع، وذلك في الأشعار التي كتبت باللغة العربية. أي كل ما قيل أو كُتب عن الأمة أثناء قيامها بمهمة المقاومة ضد الاستعمار الغربي، وبخاصة الاستعمار الفرنسي، في مختلف ربوع بلادنا العربية، ولاسيما الجزائر. وكيفما كانت تلك المقولات والكتابات، سواء شعراً أو نثراً، في كتب أو صحف، بالعربية أو الفرنسية أو العامية.

المقصود بالمقاومة :

يُراد بالمقاومة معناها الواسع، سواء كانت مسلحة أو سلمية، عسكرية أو سياسية، دينية أو أدبية، ثقافية أو اجتماعية، إلى غير ذلك. وبالتالي تترادف المقاومة مع عدة مصطلحات كالثورة، أو الجهاد، أو الدفاع، أو النضال، أو الانتفاضة، أو المفاوضات، أو التوعية، أو الإصلاح، ... إلخ.

مسيرة المقاومة:

عرفت البلاد العربية خصوصاً والإسلامية عموماً المقاومة خلال فترات مختلفة من تاريخها، ولا سيما بعد احتلالها من طرف الدول الغربية، أي إبان القرون الثلاثة الأخيرة (القرن 19 و 20 و 21). وكما هو معروف ومعلوم، بدأت المقاومة في الجزائر مع الأمير عبد القادر، ولم تنته منذ ذلك الحين، فإن خمدت نيران الحرب التي قضت على سلاسل العبودية، فإن الثورة السياسية والاجتماعية والثقافية لا زالت مستمرة. ومنذ وطئ الفرنسيون أرض الجزائر أخذوا يخربون القيم الروحية . فصعدوا الشعب الجزائري عن الثقافة العربية، بجعل حواجز بينه وبين إخوانه العرب شرقاً وغرباً. وفرضوا ثقافتهم حتى يقتلوا اللغة العربية، لما فيها من خطر على بقائهم في الجزائر، لأن اللغة أهم المقومات الوطنية.

غير أننا سنركز على الجوانب الشعرية أكثر من غيرها، لأن الإبداع فيها كان أظهر، وتأثيرها كان أبلغ.

النهضة الأدبية مع الحركة الوطنية:

انتعش الفكر والأدب في الجزائر منذ نهاية القرن التاسع عشر، ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية، عندما انفتحت الجزائر على غيرها من البلدان العربية والإسلامية والغربية. وقد بدأ الحس الوطني يزداد بسبب الصحافة والتنقلات والهجرة، وإرادة الغرب السيطرة على العالم الإسلامي.¹

ومنذ عشرينات القرن العشرين (20 ق 20) مضت الحركة الوطنية تشع. فكانت البداية مع الأمير خالد سنة 1922، ثم نجم شمال إفريقيا في 1926، الذي كان من أعضائه مصالي الحاج. تلا ذلك تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي 1931، وما قام به أعلامها مثل ابن باديس، والإبراهيمي، والتبسي، والعقبي. كما أسهم نادي الترقّي، الذي تأسس عام 1927 بالعاصمة الجزائرية، في الثقافة والإصلاح، بإشاعته الحرف العربي.² وقد كان للشعر دور بارز لا يستهان به في ذلك.

قضايا الشعر العربي:

يدور الشعر العربي في فلك الاتجاهات الوطنية الإصلاحية التي تدعو إلى التعليم والثقافة، والمقاومة والنضال والتحرر، والوحدة ونبد الخلافات. فالشاعر بالعربية يبدأ قصيدته بالشكوى من سوء حال الشعب، فيعدّد النكبات والمصائب التي يتخبط فيها هذا الشعب، ثم يختتمها بالدعوة إلى المقاومة والاستشهاد.³

إن الفترة الواقعة بين نهاية الحرب العالمية الثانية واستقلال الجزائر، أي بين سنتي 1945 و1962، تمثل الفترة الحسنة للإنتاج الأدبي، وكانت بمثابة ثورة ثقافية.⁴

واهتم الشاعر كثيرا بالقضايا الداخلية، ووقف دائما جنبا لجنب مع الشعب، يسجل ما ألمّ به من أحداث، فيتألم لألمه ويفرح لفرحه. فرغم ما ألمّ بالجزائري من أحداث خطيرة، كسياسة الاندماج، إلا أنه احتفظ بقوميته العربية، وكافح من أجل لغته العربية ودينه الإسلامي. والجزائري لا يفصل بين القضايا الجزائرية والعربية، بل وحتى الإنسانية.⁵

أدباء الثورة:

عرفت بلاد العرب وكذا الجزائر أدب مقاومة، نضالا وثورة، ظهر في العديد من الكتابات والأعمال، من صنيع زمرة من الأعلام.⁶ وهم يمثلون التيار الوطني الإصلاحي النضالي والثوري. ومن شعراء المقاومة نورد: الأمير عبد القادر، عبد الحميد بن باديس، صالح الخرفي، ومحمد صالح بابويه، وأحمد الباتني، وعبد السلام حبيب، وعبد الرحمن الزناقي، وأبو القاسم خمار.

ومن الشعراء العرب الذين لهم أكثر من قصيدة عمودية أو حرة عن نضال الجزائريين، نورد منهم: حبيب حسين الحسني، الذي له ثلاث قصائد عمودية، والثانية موشح والثالثة من الشعر الحر، وحيد حبيب الفؤادي الذي له عشر قصائد، أربع منها على نمط الشعر الحر، وحسين بحر العلوم الذي له قصيدتان إحداها من الشعر الحر، وحياء النهر التي لها ست قصائد منها قصيدتان من الشعر الحر، وراضي مهدي السعيد الذي له قصيدتان من الشعر الحر، وعلي الحلبي الذي له ست عشرة قصيدة أربع منها تنتمي إلى الشعر الحر، ومحمد جميل شلش الذي له ثلاث قصائد إحداها من الشعر الحر، وكاظم محمد حسين الذي له ثماني عشرة قصيدة، تسع منها عمودية، وتسع من الشعر الحر.

ومن شعراء المقاومة العرب نذكر أيضا: بدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، وعبد الغني الجبوري.

وسنذكر، فيما يلي، مقتطفاتٍ عن أعمال هؤلاء الأعلام.

محمود درويش:

تُعَدُّ الثورة عند محمود درويش لغة مشتركة بين جميع مناضلي العالم، وانتصارها في أي بلد منه يعده درويش انتصارا لقضية

فلسطين، فيقول:

فكلام الثورة نور يقرأ في كل لغات الناس
وعيون الثورة شمس تمطر في كل الأعراس
ونشيد الثورة لحن تعرفه كل الأجراس⁷.

ويقول درويش أيضا:

بتي على الأوراس كان مباحا

يستصرخ الدنيا مساء صباحا

... فالوحش يقتل ثائرا

والأرض تنبت ألف ثائر⁸

عبد الوهاب البياتي :

يصور الشاعر المجدد عبد الوهاب البياتي قوة الثورة بأنها عملاقة، وبأنها فكرة مبدعة تكتسح العملاء الذين يسميهم بالمسوخ والطبول والجيف، فالثورة تغلح الحقول من خلال أهوال العواصف، وتصنع فوق الأنقاض كل ما هو جميل ونبييل، فالثورة إذا عند البياتي فكرة تبني وتغلح؛ لأنه يستقرئ الأحداث ويستطلع المستقبل، مستقبل الجزائر سيكون بناءا جميلاً وسبكاً رائعاً لكل ما هدم. وعن ثورة الجزائر نجد أن عبد الوهاب البياتي يقول:

الثَّورَةُ العِمْلَاقَةُ

الفِكرَةُ الخِلاقَةُ

تَجَرِّفُ في طَريقِهَا المُسَوِّخَ والطُّبُولَ

والجِيفِ المُعْطَرَّةَ

والنَّصَبِ الشَّائِعَةِ المُبْعَثَرَةِ

تُحْدِثُ في إِغْصَانِهَا الحُقُولَ

تَعِيدُ صَنَعَ الرَّائِعِ النَّبِيلِ⁹

بدر شاكر السياب :

يعبر بدر شاكر السياب عن ثورة الجزائر في كونها أمل العروبة ومثل الإنسانية في قصيدته "إلى جميلة" حيث يخاطب الثورة الجزائرية من خلال المناضلة الجزائرية، فيقول لها لولاك ما جادت أغصاننا القاحلة بالثمار، ولما تدفقت قوافينا البديعة، فنحن (أي: العراقيون والعرب) نعيش في هوة مظلمة، وعن طريقك تسرب لنا الإشعاع الذي يبدد ظلامها، فقال :

والله لَوَلَا أَنَّهَا يَا فَادِيَةَ

مَا أَثْمَرَتْ أَغْصَانُنَا الْعَارِيَةَ

أَوْ زَنَبَتْ أَشْعَارُنَا الْقَافِيَةَ

إنَّا هنا.... في هوة راجية
ما طَافَ لَوَلا مُقْلَتَاكَ الشَّعاع¹⁰

جواد البدري:

يُلاحظ أن قصيدة "أنا فكرة" لجواد البدري، التي نظمها وأهداها للمناضلة الجزائرية لجميلة عام 1958، تعد من أجمل ما قيل في نضال جميلة، فقد جسد الشاعر الثورة الجزائرية في جميلة المناضلة، وعد الثورة فكرة وليست كائناً من لحم ودم، ولهذا فإنها لا تموت بموت الأشخاص، وهي فكرة كامنة في العقول والنفوس وفي دموع الكادحين، منذ أن ظهر الإنسان على سطح الأرض. وفي هذا المضمار يقول جواد البدري على لسان المناضلة الجزائرية جميلة:

اقتُلُونِي أَنَا فِكْرُهُ
اسْحَقُونِي أَنَا زَهْرُهُ
أنا رمزٌ لنضالِ الشَّعبِ مِنْ أَجلِ السَّلامِ
وَشِعَارُ الوُدِّ والإِخلاصِ، في دُنْيا الوِثامِ
أنا إِنِّ ضحيَّةٌ بالنَّفْسِ، وِغَاياتِ المِرامِ
فَلْأَجْلِ الحَقِّ أَمْضِي وَأُضْحِي

بِشْبَاطِي

وعزمي¹¹

عبد الغني الجبوري :

يتحدث عبد الغني الجبوري عن النساء الجزائريات، فيقول: "بأنَّ كلَّ امرأةٍ بالجزائر هبت لمصارعة الاستعمار غير مبالية بالموت، والمرأة التي عرفت بالدلال والغنج، تحولت بالجزائر إلى ثورة بجهادها وصارت أقوى من الجبال. وفي هذا المجال يقول عبد الغني الجبوري:

حَدَّثِينَا عَنْ كُلِّ حَوَاءٍ خَفَتْ
وَاسْتَخَفَّتْ بِالمَوْتِ مَا أَجْمَلَ المَوْتِ
رَبَّةُ الخَدْرِ والدَّلَالِ اسْتَحَالَتْ
فِيهِ أَرْسَى مِنَ الرُّبَى والجِبَالِ
لِقَرَاةِ المُسْتَعْمَرِ المُتَعَالِي
إِذَا كَانَ فِي سَبِيلِ المَعَالِي
ثَوْرَةٌ فِي كِفَاحِهَا وَالتَّرَالِ
وَهِيَ ذَاتُ الحِجَى وذَاتُ الجَمَالِ¹²

محمد جميل شلش :

أُنشد الشاعر محمد جميل شلش قصيدة بمناسبة إعلان الجمهورية الجزائرية عنواها "تحية للجمهورية الجزائرية" من الشعر الحر، فيقول فيها على لسان المجاهد الجزائري، أنا أغني فجر جمهوريتي، وأغني للسلاح الذي حققها، أغني من أوراس مجد الرجال، من حيث انطلق النضال، وتدفع سبيل الثائرين:

وَأَنَا أُغْنِي فَجَرَ جُمْهُورِيَّتِي الْكُبْرَى
وَأُغْنِي لِلسَّلاحِ سَيَّحِجَ التَّارِيخِ زَنْدِي
سَيُحَدِّثُ الدُّنْيَا لَهْيِي، إِنَّ مَجْدَ الشَّمْسِ مَجْدِي
فَلَتَكْتُبِ الْأَجْيَالُ بَعْدِي
مِنْ هَاهُنَا مَجْدَ الرِّجَالِ
مِنْ هَاهُنَا أَنْطَلِقُ النِّضَالُ
وَسَالِ سَبِيلُ الثَّائِرِينَ

وينتهي الشاعر محمد جميل شلش شعره هذا بقوله:

وَلَسَوْفَ نَطْرُحُ كُلَّ آتِ الْفَنَاءِ
وَلَسَوْفَ نَنْسَى الدَّمَ وَالظَّلَامَ
وَنَقِي الدُّنْيَا بِرَايَاتِ السَّلَامِ¹³

كل ما سبق إيرادُه وعرضُه، من أدباء وشخصيات، وآداب وكتابات، لِيُعَدَّ دلالةً قاطعة ناصعة على الأهمية البارزة للمقاومة العربية والجزائرية، في شتى مصادرها ومختلف صورها، وعلى التفاعلات الكبيرة لأبناء العرب والجزائر الأفاضل.

الهوامش:

1. د عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تأريخاً وأنواعاً وقضايا وأعلاماً)، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 59.
2. د عمر بن قينة، ص 60-61.
3. د. عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، ط 1، بيروت، دار الجيل، 1411 هـ / 1991، ص 41.
4. د. عبد العزيز شرف، م س، ص 85.
5. محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، تقديم أ. د. عبد الجليل مرتاض، د ط، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2006، ص 417.
6. د عمر بن قينة، ص 63.
7. يوسف الخطيب، ديوان الوطن المحتل، دار فلسطين، دمشق 1986، قصيدة محمود درويش "عن الثورة الكردية والثورة الكويتية" ص 63، 76 و 78.
8. محمود درويش، قصيدة "عناقيد الضياء"، الديوان، المجلد 1، ص 227.
9. بوابة الجزائر، "الثورة الجزائرية في الشعر العراقي". www.algeriagate.
10. نفسه.
11. نفسه.
12. نفسه.
13. نفسه.